دور المؤسسة الدينية في المحافظة على الآثار

أ.محمد قاسم حدبون
جامعة غرداية

توطئة:

يصدُرُ الإنسانُ -عادةً- في قناعاته وتصوراته ومن ثمّة في مواقفه وتصرفاته عن معتقداتٍ ومبادئَ دينيَّة، فللقناعة الدينيَّة اتصالٌ وثيق وتأثير مهمٌّ في التفاعل مع ما يحيط بنا، ولا يمكن بحال تجاهلُ الارتباطِ القائم بين المعتنَق الديني وموضوعِ الآثار؛ فهذي المخطَّطاتُ اليهوديَّة، في تعاطيها المزدوَج مع آثار بيت المقدس، تتأسَّس على قناعات دينية وتصورات إثنية، والكشف عن الهيكل -مثلاً- أمرٌ لا يقبل المناقشة من الوجهة الدينيَّة. وقد يحرك بعضَ علماء الآثار قناعات دنيية، كما لهذي الأخيرة الحضور القوي في تفسير ما اكتشف وما اندرس من حضارة الإنسان.

بيد أنَّ الترابط بين الدين والآثار، لا يكون في صالح الآثار دوما، فقد يعود بالجناية والنقمة عليه؛ بمعنى أنَّ الاعتداء على الآثار لما يغدو قناعةً دينية، فمن الصعب أن تجدَ التشريعاتُ والقوانينُ طريقَها إلى التطبيق، ولما تكون المحافظة على الآثار ضربًا من الشركيات، ليس من السهل أن تقنع بالمحافظة والحماية فردًا أو جماعةً تتَّخذ من تدمير الآثار عينَ المصلحة وصحيحَ التدين.

وإذا كان حِفظ الدين مقصد شرعيٌّ مأمورٌ به، فإنَّ التحدي القائم اليومَ يكمن في جوابٍ واضح لأسئلة تضع مسألة المحافظة على الآثار بين جدلية (الادكار والاعتبار- وفساد الاعتقاد).

فكيف نستطيع التوفيق بين نصوصٍ ورد فيها تحطيم الأصنام والأوثان، وتلك التي تأمرنا بالسير ونظر الاعتبار بآثار السابقين؟ ويجرنا هذا إلى السؤال عن موقف المؤسسة الدينية في الجزائر (المسجد، الدعاة، الفتاوى..) من بعض الفتاوى التي تغلِّب مصلحة تحطيم الآثار؟ فأيُّ دور لهذه المؤسسة في التوعية بأهمية الآثار، وهل في خطابها ما يصبُّ لفائدة صونها من العبث والاعتداء؟ وهل يمكن أن يكون للمسجد خطوات عملية في هذا الاتجاه؟ وبالتالي كيف يمكن أن نؤصِّل شرعًا لمسألة المحافظة على الآثار تنظيرا وتوقيعا؟

وأخيرا، هل من الممكن صياغة دور بنّاء للمؤسسة الدينية في الحفاظ على الآثار؟ وما محدِّدات هذا الدور ومعالمه؟ وهل ثمة فعلا نقطة التقاء وخطوط تماس بين المجالين؟

1 - الآثارُ في المدلول اللغوي والمفهوم القرآنيِّ.

الأَثر: بقية الشيء، والجمع منه آثار وأُثور. وخصَّه الخليل ببقيّة الشيء مما تراه العين. وفي معنى الأثر الرسم، قال الضَّرِيرُ: الأَثَر والرَّسْمُ واحِدٌ. وقيل الرَّسْمُ بقيّة الأَثَرَ. وقيل لخطى الإنسان أثر، لأنه يخلفها من بعده. ومنه: تَأَثَّرْته أي: تتبعت أَثره. وتَرَسَّمتُ: نَظَرْتُ إلى رُسُومِ الدّارِ. والآثارُ الْأَعْلامُ. والسيف المأثور: القديم المتوارث كابراً عن كابر.

وقد عرفت العرب متتبعَ الآثار فسمته القائفَ والعائفَ، وهو الدليل والهادي لما اندرس من الآثار.(1) وهو فن ومهارة أقتنته العرب وأحكمته، ومن بديع ما حكاه الأصمعي في مُلحه عن أبي طرفة الهذلي قال: رأى قائفان أثرَ بعير وهما منصرفان من عرفة بعد الناس بيوم أو يومين فقال أحدهما: ناقة، وقال الآخر: جمل، فاتبعاه فإذا هما به، فاطَّافا به فإذا هو خنثى.(2)

وفي معنى القائف القاصُّ، فالقاص يتبع الآثار فيأتي بالخبر على وجهه، قال القرطبي في معنى الآية]وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ["أي تتبعي أثره".

فإن كان المعنى الأساسي للأثر والآثار هو ما خلفه الفرد -أو الجماعة- من بعده، فإن الاستعمال الدلالي قد عرف توسُّعا في الاستعمال، من ذلك ما أشار إليه الألوسي من أنَّ القدماء كانوا يسمون المبادئ بالآباء، ويسمون الآثار أبناءً، لأنهم خلفة آبائهم. وسمى أهل الحكمة الرياح والسحاب والرعد والبرق والنجوم والكواكب وسائر ما يقع في السماء آثار علوية، أو آثارا سماوية. قال الألوسي: "وزعم بعض أهل الآثار أنه مكتوب في وجه القمر لا إله إلا الله".(3)

وبقاء الآثار عقب الإنسان أمر نسبي بدوره، وإلا فهي كذلك مما سيحله الزوال، ويمحى الرسم والأثر، وذاك ما يعنيه المتنبي، بقوله:

أين الذي الهَرَمانِ من بُنيانِه ... ما يومُه ما قومُه ما المصْرَعُ

تتخلّفُ عن أصحابِها ... حيناً ويدرِكُها الفَناءُ فتتْبَعُ(4)

أما في القرآن الكريم، فقد وردت كلمة (آثار) في مواضع عديدة، ولم تخرج عن المدلول الأساسي؛ فقد وردت بالجمع (آثارا) عشرة مرات، ستةٌ منها تُعنى بالتراث المعنوي كسيرة الأجداد وطريقتهم في العبادة والاعتقاد، أو في معنى الهُدى الذين يتركه الأنبياء ويأتي الوحي الذي يعقبه مقتفيا وتابعا؛ وأما الأربعة فهي أقرب إلى نطاق البحث، أي ما يخلفه الإنسان منجز مادي؛ نحو

ما ورد في سورة غافر،]كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآَثَارًا فِي الْأَرْضِ[(غافر:21)،]كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآَثَارًا فِي الْأَرْضِ[(غافر:82)، وثالثة في سورة يس]وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ[(يس:12) ؛ كما وردت الكلمة بالإفراد مرتين،]فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا[(طه:96)،]سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ[(الفتح:29).

ودعوة القرآن وأمره بالسير في الأرض إنما هي دعوة إلى العلم بتاريخ السابقين من أجل الاعتبار تلك هي الغاية الأساس من النظر فيمن سبق. والاعتبار منهم. وفي معاينة الآثار معرفة أهلك الله من الأمم الموجودة في عصر بعد عصر.(5)

وما دامت تلك الآثار دالة على الأمم السالفة، فهي بمثابة العلامة والأمارة أن كان ثمة حياة وصخب، واجتماع وحضارة، لذلك وجدنا ألفاظا ذات صلة بمفهوم الآثار، ومنها لفظة القائم في آية هود]ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ[(هود:100) فالقائم: هي الآثار، والحصيد: الدارس منها. وقال ابن عاشور في شأن الآية: "والمرادُ بالقائم ما كان من القرى التي قصّها الله في القرآن قُرى قائماً بعضها كآثار بلد فرعون كالأهرام وبلهوبة (وهو المعروف بأبي الهول) وهيكل الكرنك بمصر، ومثل آثار نينوى بلد قوم يونس، وأنطاكية قرية المرسلين الثلاثة، وصنعاء بلد قوم تُبّع، وقرى بائدة مثل ديار عاد، وقرى قوم لوط، وقرية مدين. وليس المراد القرى المذكورة في هذه السورة خاصة . والمقصود من هذه الجملة الاعتبار.(6)

كذلك كان من الألفاظ ذات الصلة لفظة "آية" الدالة على الأثر، في قوله تعالى]وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءايَةً بَيِّنَةً[(الفتح:29) أي "أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة، وهي الآثار التي بها، من الحجارة التي رجموا بها، وخراب الديار. وقال مجاهد : هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر، وخص من يعقل، لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها".(7) فكأنه قيل: "سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين".(8) وهذا ما أفرغ السياحة من مقصودها، وجعل نفوسا تنفر من السياحة باسم الدين، وتحول هذا النفور إلى ثقافة تجسدت في الاستهتار بالآثار، والاعتداء عليها سرقة وتدميرا.

ولولا تلك الآثار الباقية، ما علم بهؤلاء السابقين أحد، وكل اعتداء على الآثار وتقصير في المحافظة عليها إنما هو محوُ لعلم، وإلغاء لدليل معتبر عند الشرع الحنيف هو دليل الاعتبار والنظر،]وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[.(مريم:98)

وفي الحث على الاهتمام بآثار الحضارات البائدة أو السيوطي في الدر المنثور أثراً نسبه إلى ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر، وفيه عن ابن دينار قال: أوحى الله إلى موسى عليه السلام،

أن اتخذ نعلين من حديد، وعصا ثم سِحْ في الأرض، فاطلب الآثار والعبر، حتى تحفوَ النعلان وتتكسر العصا".(9)

2 - تأصيل المحافظة على الآثار.

ماذا يعني دعوة القرآن إلى مشاهدة آثار السابقين، أوليست آثارُهم هي عينُ ما أمرَ الشرع بالنظر فيه والاعتبار به؟ كيف يمكن أن نتحدث عن آثارٍ تخدُم حسنَ الاعتقاد وترسُّخُه؟ أثمةَ فعلاً تنافر حقيقي؟ ألا يمكن أن نتكلم عن محافظة متلازمة، بمعنى محافظةٌ على حُسن اعتقاد في محافظةٍ على الآثار. أين يكمن الخلل؛ أفي الآثار والجماد، أم أنَّ الخراب في النفوس وضعف الاعتقاد؟ وعلى فرض الانحراف هل الدواء في إزالتها، أم في معالجة النفوس القائمة. لماذا نسلم بالضرورة أنَّ تمام حسن الاعتقاد في تدمير الآثار.

أوردَ القرآنُ الكريم آيات عديدة تتعلق بموضوع التعاطي الإيجابي مع آثار الحضارات الإنسانية البائدة، وانطوت كلها على تصريحات وتلميحات تؤسس كلها لخدمة الآثار من وجهة دينية، وتمكننا من قراءة أثرية-إيمانية واعية، تضع ملامحَ للتعامل مع هذا التراث الإنساني.

من الآيات قوله تعالى:]أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[.(الروم:09)

]أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّة وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا[(فاطر:44).

]أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ[(غافر:21)

]أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[(غافر:82)

]أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا[.(محمد:10)

وبقراءة متأنية في هذه الآيات التي تؤصل لعلاقة الآثار بتأسيس الاعتقاد، نخرج بهذه الملاحظات:

1.إن الأمر بالنظر والاعتبار من آثار السابقين جاء مؤكَّدا في العديد من السور، وكلها مكية، ومن المعلوم أن المكي من القرآن يبني للعقيدة الصحيحة ويؤسس لها. وبالتالي فإن النظر في منازل السابقين وآثارهم أمر محمود إن كان بمنهج النظر القرآني الذي هو الاعتبار والتبصر بالعاقبة، وما لا يتم إلا به فهو واجب.

2.ورد الأمر بالنظر على سبيل الحثِّ والدعاية، والتحضيض على السير، فالهمزة للإنكار التوبيخي، واقترن بالأمر الغاية من النظر وهو إدراك عاقبة من سبق من الأمم وغبر. قال برهان الدين البقاعي: "أي سير اعتبار وتأمل وادكار من أيِّ جهة أرادوا، وفيه إشارة إلى أنهم -غير المعتبِرين- واقفون عند النظر في ظاهر الملك بأبصارهم ، قاصرون عن الاعتبار".[10] ومن فساد التدين أن يجد الإنسان نفسه في خلل مع التعاطي الإيجابي مع مثل هذه الآيات.

3.وصف الله I الأقوامَ السابقة بأنهم كان أهلَ رقيٍّ وحضارةٍ وازدهار وعمران، حتى إن بعضَ الآيات وصفت حالتهم المادية على سبيل المفاضلة (أكثر، أشد). ووجه التفضيل في (أكثر) هو "كماً وكيفاً وزماناً"،[11] وقوَّة الأمة إنما هو مجموع ما به تدفع العوادي عن كِيانها وتستبقي صلاح أحوالها من عُدد حربيّة وأموال وأبناء وأزواج.[12] كما أن التركيز على ذكر العمارة والعمران دليل على التحضر والتمدن، وما آثارهم إلاَّ ما " أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات".[13] قال الفخر الرازي "وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة".[14] ومنها "القلاع المحكمة والمدائن الحصينة".

4.واتفقت كلمة المفسرين أن معنى "أثاروا الأرض" يعني فنون الحرث ونشاط الزراعة، كما قال الفراء. واختار بعضهم معنى أوسع فقال ارتفاقَ خيراتها من المعادن الباطنية واستخراج المياه. ما يعني أن خبرة متراكمة في المجال، تقتضي كما زاخرا من الآلات والوسائل، التي تحفظها لنا المتاحف.

5.لم تحدد الآياتُ تفاصيل النظر، إذ جاء الأمر مجملا، وأما التفصيل وتقنيات الدراسة ووسائل الكشف والحفر الأركيولوجي فموكول إلى ذوي الاختصاص. ولنا أن نتصور عالم آثار ينطلق في تصوراته وتفسيراته من منطلق إيماني عقدي. وهو بعدٌ مفقودٌ لدى الكثيرين من رواد هذا الاختصاص. وللفصل بين المجالين (الدين-دراسة الآثار) أسبابه.

6.تلخص الآيات الواردة في الموضوع أن ما حلَّ بالأمم السابقة من الخراب والدمار كان بسبب سوء فعالهم، ولم يكن الله ليظلمهم. كما أن الازدهار والرقي والشموخ مهما بلغ لن يحول أمام قدرة الله وعقابه إن خالف الحضارة أسباب البقاء. ولم تحدد الآيات الآمرة بالنظر

حضارة دون أخرى، "فالأرض كلها وحدة، مسرحٌ للحياة البشرية، في كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر، بعضها حدَّد مكانه وزمانه وشخوصه، وبعضها أشار إليه بدون تحديد ولا تفصيل". [15] المهم هو النظر والاعتبار.

7.يقصد بالنظر كما قال ابن كثير أعمال "أفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماعهم أخبار الماضين"[16] ويتحقق الأمر بالقصد والتوجه ولو اقتضى ذلك السفر فيما يمكن أن يكون سياحة دينية يبني للعقيدة ويحميها من خلال الآثار، تسمو على التنزه والترويح، وقد فسر الإمام البغوي السير بالأرض بالسفر، فقال "أولم يسافروا في الأرض"[17] ويبقى التحدي في تصحيح النظرة إلى التعامل مع الآثار، التي هي كنز الأمة وإرثها المشترك، وبنكُ الإيمان؛ وتجسيد ذلك كله عمليا.

3 - جدلية (الاعتبار-فساد الاعتقاد) في التعامل مع الآثار.

غنيٌّ عن القول أن الدعوة إلى المحافظة على الآثار لا يعني البتة الإقرار بأمور شركية، مهما صغرت، فمقصد حفظ الدين مأمور به شرعا، لكن هل من الممكن أن نسلك طريقا وسطا يجيب عن الأسئلة التي تضع الآثار بين جدلية الاعتبار وفساد الاعتقاد.

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمة وثنيَّة تصنعُ أصنامَها وتضعها حول الكعبة المشرَّفة، وكان أهمَّ محاور القرآن الكبرى الدعوةُ إلى عبادة الله الواحد الأحد، لذلك نجده ذمَّ عبادة الأوثان في مواضع كثيرة، وردَّد قصصَ الأقوام الوثنيين السابقين ومواقفَ الأنبياء معهم، وكان أبرزَها قصةُ إبراهيم عليه السلام مع قومه، ومع أبيه الذي كان أساسا صانعا للأصنام، وتورد القصة مصيرَ الأصنام الذي كان التحطيمَ والتجذية، بعد محاورات ومحاولات إقناع، من أجل توجيه الناس إلى إخلاص العبادة والعبودية لله رب العالمين.

وبالمقابل نجد القرآنَ الكريم قد حثَّ الناس في كثير من آياته على السير في الأرض والنظر في آثار الأمم السابقة والاعتبار والانتفاع بها في الدين. وإذا ما وردَ الأمر بالنظر في القرآن فذاك يعني الدراسة الجادة لهذا التاريخ، ولا يتحقق ذلك إلا بالاحتفاظ على تلك المعالم والآثار. فالتاريخ البشري قد عرف أمما غابرة، وحضارات داثرة، وتراكمت ذاكرةٌ موغلة في القدم خلفها السومريون والبابليون والكلدان، والمصريون والفرس والرومان...، وغيرهم كثيرٌ من أولئك الذين ملأوا جنبات الأرض صناعة وعمرانا، فلجأوا إلى تسجيل تاريخهم في أبنية عليها نقوش ورسوم، ونحوت على الحجارة.

ومن وقف على هذا السجل المفتوح ليقف مشدوها أمام عظمة تلك الحضارات البائدة، وما بلغته من علوم وفنون، وتزداد دهشته أكثر، وهو يستقصي سرَّ الانقراض وسبب الاندثار، هذا ما يجعل دراسة الآثار لاستخلاص العبر أمرا مأمورا به شرعا وهو تمام الدين وحسن الاعتقاد. وغنيٌّ عن القول أن الدعوة إلى المحافظة على الآثار لا يعني البتة الإقرار بأمور شركية، مهما صغرت، فمقصد حفظ الدين مأمور به شرعا، لكن هل من الممكن أن نسلك طريقا وسطا يجيب عن الأسئلة التي تضع الآثار بين جدلية الاعتبار وفساد الاعتقاد.

لكن المفارقة تأتي من تصوُّر خاطئ ينطوي على تناقض في نفسه، منطلقه فهم قاصر للإسلام في عدِّه لعلم الآثار مجالا لا يهم المسلمين كثيرا، بل إنَّ الاشتغال به يعدُّ ضربا من العبث، هذا إن لم يُخطِّأ صاحبُه لأنه يقرأ علما له فلسفة غربية بعد أن تخلف عنه المسلمون وتخلوا، فغابت النظرة الأركيولوجية ذات التصوُّر الإسلامي، وبخاصة في أسباب اندثار العديد من الحضارات.

من هنا كان القرآن الكريم في كثير من آياته قد لفت نظرَ الناس إلى السير في الأرض ودراسة آثار الأمم السابقة والاعتبار والانتفاع بتلك الآثار، وكانت الدراسة الجادة لهذا التاريخ لا تكتمل إلا بالاحتفاظ بآثارهم وجمعها واستقرائها. ولعله من يؤسف له أن يعد المجال مخصصا لغير المسلمين، بل إن الاشتغال بذلك ضرب من العبث إن لم يخطأ صاحبه، من هنا غابت النظرة الأركيولوجية ذات التصور الإسلامي، وبخاصة في أسباب اندثار العديد من الحضارات.

4 - إشكالية الاعتداءِ على الآثار من منطلق دينيّ.

يقف الباحث عن علاقة الدين بالآثار أمام شكلين متناقضين من التعامل؛ أحدهما، يمكن أن يوصف بالتعاطي الإيجابي، ومن ذلك ما أفتى مجمع البحوث بالأزهر الشريف بضرورة **إبقائها،** متى خلت من مظاهر التعظيم ومظنة التكريم، واعتبر آثار الأمم السابقة وسيلة لدراسة تاريخهم علميا وسياسيا وحربيا، وأخذ النافع من هذا التاريخ، ليخلص إلى اعتبار الآثار سجلا تاريخيا يلزم المحافظة عليه. لأنه من الضرورات العلمية.[18]

كما اعتبر إقامة المتاحف ضرورة لما كان التحفظ على هذه الآثار هو الوسيلة الوحيدة لهذه الدراسة أصبح حفظها وتهيئتها للدارسين أمرا جائز إن لم يكن من الواجبات باعتبار أن هذه الوسيلة للفحص والدرس ضرورة من الضرورات. ويرى الموقف الثاني وجوب تحطيمها وتدميرها متى كانت تشكل الاعتقاد السليم. ومن حيث المبدأ لا نجد تعارضا مع القول الأول، لكن الإشكال يكمن في تنزيل هذا التصور في الواقع، إما بعدم التفرقة بين ما يشكل التهديد فعلا لسلامة الاعتقاد وما ليس كذلك؛ ومن جهة الأخرى عدم انتهاج مراتب تغيير المنكر، فعلى

تصور الاختلاف في المسألة وهو اختلاف عقدي، هل يسع الخلافُ المسألةَ ويسمعُ فيها للرأي الآخر، وإن لم يسعه، هل ثمة طرق أسلم تبقي المحافظة على الآثار ومحو الشركيات من القلوب. ألا نجد سبيلا إلى تربية الناس وتصفية القلوب، قبل الشروع في تحطيمها. ولعلنا نورد أنموذجا لذلك فيما يأتي.

قبل بضع سنوات ألقي الدكتور أحمد زكي يماني، وزير النفط السعودي السابق، محاضرة بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية التابعة لجامعة لندن حول مشروع قام به للتنقيب عن منزل النبي محمد وخديجة عليهما السلام في مكة. كانت المحاضرة قيمة جدا، حيث اشتملت، بالاضافة للنبذة التاريخية عن تاريخ المنزل، علي صور فريدة من نوعها للموقع الذي تم تنقيبه، وأظهرت غرفه بوضوح ومنها محراب الرسول وغرفة ولادة السيدة الزهراء.

يقول الدكتور يماني بأنه جاء بأكثر من ثلاثمائة عامل، ومعهم كلُّ ما يحتاجونه من معدات إلي الموقع، بالإضافة إلي مهندسين وأخصائيين في التنقيب عن الآثار، وقام الفريق بعمل نادر علي مدار أربع وعشرين ساعة. استطاع خلالها كشف المنزل الذي لم يبق منه سوي ارتفاع متر من حيطانه، وبعد أن صوروه بشكل مفصَّل، قاموا بردمه بالرمل مباشرة وغادروا الموقع. وعندما سئل عن سبب ردمه بالرمل بعد هذا العمل الشاق، أجاب: لدينا في السعودية تيار يعتبر الاهتمام بهذه المواقع والآثار ضربا من الشرك.

وقف سائل وقال: كيف تبرر صرف هذا المبلغ الكبير علي اكتشاف بيت قديم، ما الفائدة من ذلك؟ فرد الدكتور يماني: شكرا لك، لقد سهَّلت مهمتي في إيضاح الصورة للحاضرين.

لقد كان الحاضرون مشدودين إلى صور منزل النبي عليه افضل الصلاة والسلام، فهي تحكي تاريخا مجيدا، وقصة مثيرة لنشوء دين الاسلام، ولو كانت لدى غير المسلمين لحظيت باهتمام كبير، واستقطبت الزوار والسياح من كل مكان.

لا شك أنَّ هناك أرضية تتخذ طابعا دينيا لهذه العقلية، تنتهي إن لم تضبط إلى محو الآثار الإسلامية والقضاء علي تراث معماري وفني وثقافي لا يمكن تعويضه بشيء،[19] ولعله يسلب عن الاسلام السمة التي لازمته منذ بدايته، والتي يسعي الجميع للترويج لها، وهي أنه دين متسامح، يحترم عقائد الآخرين، ويمنع الاعتداء علي مقدساتهم وأماكن عبادتهم، لأن في ذلك تهديدا للسلم الاجتماعي والعلاقات الإنسانية.

5 - المؤسسة الدينية والمحافظة على الآثار، أية علاقة؟

يحقُّ للسادة الحضور من الأساتذة والباحثين أن يتساءلوا هل ثمة فعلاً نقطةُ التقاء وخطوط تماس بين المجالين، المؤسسةِ الدينية وموضوع الحفاظ على الآثار، ذلك أنَّا قد نجد أنفسنا بين طرحين، متنافرين، أحدهما، مفاده أنَّ مجال الآثار الذي هو فضاء الأركيولوجيين والمؤرخين، وربما علماء الاجتماع، وليس للدين أن يُقحِم نفسه في كل صغيرة وكبيرة، ومن دونهم من يأسف لتقزيم حضور الدين في مظاهر عبادية شكلية لا تتجاوز علاقة الإنسان بربه، وكلّ ما له علاقة بدروب الحياة ومجالات الاجتماع والاقتصاد، وبين النظرتين، فيما يبدو لي طريق وسط، نريد فيه أن نموقع حضور الدين في عالم الآثار والتراث، من خلال دور المؤسسة الدينية في المحافظة على الآثار.

حتى لا نخرج بصورة معتمة وربما سلبية في علاقة علماء الدين بالآثار، فثمة مَن أقام رباطا وثيقا بين المجالين، خلال قراءته للآيات المتعلقة بآثار السابقين. اهتمامٌ في حاجة إلى التعميم في إطار منهج تعليمي تتبناه الهيئات العلمية، ونورد نموذجا لذاك الاهتمام عند ابن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير".

النموذج الأول: عن تاريخية السجود. يقول "فكان السجود أول تحية تلقاها البشر عند خلق العالم. وقد عُرف السجود منذ أقدم عصور التاريخ، فقد وجد في الآثار الكلدانية منذ القرن التاسع عشر قبل المسيح صورة حمورابي ملك كلدية راكعاً أمام الشمس، ووجدت على الآثار المصرية صور أسرى الحرب سجداً لفرعون، وهيآت السجود تختلف باختلاف العوائد. وهيئة سجود الصلاة مختلفة باختلاف الأديان".[20]

النموذج الثاني: عن التحقيق في شخص فرعون، "قال ابن جُريج: كان فرعون هذا قصيراً أحمر فلا نشك في أن منفطاح الثاني مات غريقاً في البحر، وأنه خرجت جثته بعد الغرق فدُفن في وادي الملوك في صعيد مصر. فذكر المنقبون عن الآثار أنه وجد قبرُه هناك، وذلك يومئ إلى قوله تعالى]فاليومَ نُنَجّيك ببدنك لتكونَ لمن خلفك آية[.[21]

النموذج الثالث: تاريخ استعمال الحديد. يقول: "والمقطوع به أن الحديد مستعمل عند البشر قبل ابتداء كتابة التاريخ، ولكونه يأكله الصدأ عند تعرضه للهواء والرطوبة لم يَبق من آلاته القديمة إلا شيء قليل. وقد وُجدتُ في (طيبَة) ومَدافن الفراعنة في (منفيس) بمصر صور على الآثار مرسوم عليها صور خزائن شاحذين مداهم وقد صبغوها في الصور باللون الأزرق لون الفولاذ، وذلك في القرن الحادي والعشرين قبل التاريخ المسيحي. ويوجد مكان بأرض

سُكرة قرب المرسى من أحواز تونس فيه كهوف صناعية حقق لي بعض علماء الآثار من الرهبان النصارى بتونس أنها كانت مخابئ لليهود يختفون فيها من اضطهاد الرومان القرطاجنيين لهم.

وتوجد صورة بعل في دار الآثار بقصر اللُوفر في باريس منقوشة على وجه حجارة صوروه بصورة إنسان على رأسه خوذة بها قرنان وبيده مقرعة. ولعلها صورته عند بعض الأمم التي عبدته ولا توجد له صورة في آثار قرطاجنة الفينيقية بتونس".[22]

6 - دور المؤسسة الدينية: معالم في طريق المحافظة والحماية.

في ظل البحث عن دور بنَّاء للمؤسسة الدينية في الجزائر من أجل الإسهام في المحافظة الآثار وحمايتها، فإن الرهان الذي هو عاتق مؤسسة المسجد يمكن أن يلخص في النقاط التالية:

1. التأسيس لعلاقة صحيحة بين المسلم وتراثه الأثري، واعتبار المحافظة على الآثار، محافظة على «العرض والشرف» -وحفظ العرض من مقاصد الشرع-، وتلك ثقافة وتكوين وجب أن يتشربها المسلم منذ الصغر، في مقرراته المدرسية، وفي الدروس والخطب التي تكون تصوراته الدينية، وفي السلوك اليومي الذي ينبغي أن يقتدي به. والحفاظ على التراث هو واجب إسلامي قبل أن يكتسب الصفة الانسانية.

2. تفعيل تلك العلاقة الصحيحة إلى تصرفات حضارية، تجرِّم الاعتداء على الآثار، تحت أي شكل، سرقة، تهريب، استعمال لأغراض خاصة كالبناء... والعمل على إرساء عملي لمفاهيم العقل الجمعي الذي يجعل الجميع حريصا على الآثار، من منطلق ديني، وليس من مسؤولية أصحاب الاختصاص وحدهم.

3. تحمُّل الهيئات الدينية لمسؤولياتها في حماية الآثار، من خلال إصدار الفتاوى المحرمة للمتاجرة بالآثار، والتصريح بالتحريم على من يقوم بذلك تحريماً واضحا؛ فيكفي أنها سرقة من حرز، باعتبار أنها ملك للجميع، واعتداء على مال عام.

4. العمل الدؤوب على نشر مبادئ الاعتقاد الصحيح، وتصحيح المفاهيم الإيمانية في التعامل مع المعمار الديني، والتأكيد على ذلك في ظل انتشار بعض العادات المشينة التي لم يقرها تشريع. مع سلوك مراتب التغيير، وأولى مجالات الإصلاح هي إصلاح النفوس والطباع.

أخيرا، في ظل تخلي المؤسسة الدينية عن مسؤولياتها في توعية الناس في كيفية التعامل مع الآثار من منطلق ديني، فإن التراب يبقى أحن على الآثار من البشر، لأن ما يكتشف يمكن أن لا يُرمَّم أو يتعرض للاعتداء.

هوامش البحث:

1) ينظر: ابن منظور: لسان العرب؛ ج4/5؛ الفيروزآبادي: القاموس المحيط؛ ج1/345؛ الخليل بن أحمد: معجم العين؛ ج1/28؛ الزمخشري: أساس البلاغة؛ ج1/474.

2) ينظر: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ؛ 7/117.

3) الألوسي: روح المعاني؛ 10/377.

4) القلقشندي: صبح الأعشى؛ 1/445.

5) الشوكاني: فتح القدير؛ 2/391.

6) ابن عاشور: التحرير والتنوير؛ 7/194.

7) الشوكاني: فتح القدير؛ 5/441.

8) الرازي، محمد بن عمر: مفاتيح الغيب؛ 6/229.

9) السيوطي، جلال الدين: الدر المنثور في التأويل بالمأثور؛ 7/163.

10) البقاعي، برهان الدين؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور؛ 9/405.

11) ابن عاشور: التحرير والتنوير؛ 9/405.

12) الألوسي: روح المعاني؛ 9/405.

13) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم؛ 9/405.

14) الفخر الرازي: مفاتح الغيب؛ 9/405.

15) سيد قطب: في ظلال القرآن؛ 1/451.

16) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم؛ 9/405.

17) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم؛ 9/405.

18) فتاوى الأزهر الشريف رقم 117 فى 13/2/1979 المقيد برقم 76 لسنة 1979.

19) لقد كان تدمير تمثال بوذا في مدينة باميان الأفغانية في 2002 قد سلط الأضواء علي هذه الظاهرة التي تهدف للقضاء علي كل ما يعتبره الفكر السلفي وسيلة من وسائل الشرك. ومنذ مدة قام بضعة أشخاص بتدمير قبر هاشم بن عبد مناف، جد الرسول الأكرم (ص) بمدينة غزة الفلسطينية. وقد اتهم مدير دائرة التوثيق في وزارة الأوقاف الفلسطينية عبد اللطيف أبو هاشم حينها جهات سلفية بالوقوف وراء هذا العمل، موضحا أن هذه الجماعات أقدمت علي هذا الفعل اعتقادا منها أن من يهدم المقامات والمزارات والمعالم الاسلامية يؤجر عند رب العالمين. هذا ويعتبر القبر واحدا من أهم المعالم الإسلامية في فلسطين المحتلة.

20) سيد قطب: في ظلال القرآن؛ 1/228.

21) سيد قطب: في ظلال القرآن؛ 1/228.

22) سيد قطب: في ظلال القرآن؛ 12/154.